سوسيولوجيا المجتمع الافتراضي
- نحو مقاربة المفهوم -

د. نزيهة مصباح السّعداوي
جامعة جندوبة - تونس

تقديم:

دُرست المجتمعات البشريّة مند نشأتها، من زاويا مختلفة، اعتمادا على مقاربات متباينة المناهج، ومفاهيم مختلفة المعاني، حسب تطّورها في الزّمان، واختلافها في المكان[1]. لكنّ ما تشهده المجتمعات البشريّة، اليوم، من تحوّلات هائلة على جميع الأصعدة كانت ولا تزال نتاج إرهاصات الفكر البشريّ الّذي يصبو دائما إلى التّجديد والاكتشاف والرّغبة في معرفة الآخر. الآخر البعيد، والآخر المجهول، والآخر المختلف....، وذلك حسب ما توفّر لديه من إمكانات وآليّات.

لقد أصبحنا، اليوم، نتحدّث عن تحوّلات سريعة النّسق، تختلف عن سابقاتها في الكثافة والسّرعة، بحيث لا تترك المجال للتّمعّن فيها، والاستفسار عن مغزاها ومعانيها. فيقف الباحث أمامها مندهشا حائرا من هذا الحراك الاجتماعيّ المتسارع. لقد أصبحنا نتحدّث عن تحوّلات عميقة تمسّ الأفراد والمجموعات في أدقّ جزئيّات حياتهم اليوميّة، وعلى نطاق شاسع، لتمتدّ إلى مختلف الفئات الاجتماعيّة باختلاف درجات تقدّمها، وتنتشر في أرجاء المعمورة بغضّ النّظر عن مميّزاتها الاجتماعيّة والدّيمغرافيّة والاقتصاديّة وخصوصا الثّقافيّة.

أصبحنا نعيش عصر التّغيّرات السّريعة والمتلاحقة. فعلى امتداد تاريخ البشريّة، وعبر مختلف الثّورات الّتي أنجزتها الإنسانيّة من أجل إشباع رغباته المعرفيّة وتحقيق مستوى أرقى من الرّفاه على مختلف الواجهات...، لم يعش الإنسان مثل هذه الحقبة التّاريخيّة الّتي أفرزتها ثورة فريدة من نوعها في تاريخ البشريّة، وهي "الثّورة المعلوماتيّة". هذه الثّورة، تجاوزت تأثيراتها الأبعاد المادّيّة لحياة الإنسان، في اتّجاه خلق عالم موازٍ للعالم الواقعيّ، يضمّ مجتمعات وثقافات مختلفة تتباين تباينا واسعا في الأرض، وتصل إلى أبعد حدّ بفعل عوامل إقليميّة وجغرافيّة ودينيّة وطبقيّة.

لقد أسقطت الثّورة التّكنولوجيّة الحواجز بين الشّعوب. واستعادت البشريّة اتّصالها المألوف ببعضها البعض. وانهارت حواجز الاقتباس والاقتداء والانتفاء والانبهار. وانطلقت ثورة المعلومات تؤثّر في من يرغب، وفي من هو مستعدّ، دون معوّقات أو تعقيدات، ليصبح هناك حوارات وتفاعلات لا تنتهي، ولتصبح الثّقافة الإنسانيّة بوتقة تصهر كافّة الثّقافات في تفاعل حضاريّ مستمرّ. وأضحى، بذلك، العصر الّذي نعيشه عصر الاتّصال، بما أتاحه من وسائل اتّصاليّة تكنولوجيّة هائلة، تواصل بعدها العالم، وانفتح على مصراعيه، وانتشرت المعلومات والمعارف، وأتيحت لكلّ من يسعى إليها. هذا الأمر، جعل المجتمعات المتقدّمة في صناعات الاتّصال تحمل تسمية "مجتمعات المعلومات"، تمييزا لها عن غيرها من المجتمعات التّقليديّة الأخرى. فتكنولوجيا الاتّصال هي سمة العصر الحالي، ومظهر من مظاهر تقدّمه... "إنّ التكنولوجيّات الاتّصاليّة الحديثة تحمل في داخلها ثقافة المجتمع الّذي أنتجها ورموزه، بشكل عادة ما يكون خفيّا ومخاتلا... إنّ هذه المجتمعات "**الجيّاشة**" على حدّ تعبير "**جورج غيرفيتش**" يبدو أنّها أكثر عرضة إلى توتّر أنساقها الاجتماعيّة والثّقافيّة الأصيلة، لأنّها تمرّ إلى مرحلة لم تحدّد كلّ معالمها بعد"[2].

إنّ هذا التّطوّر التّكنولوجيّ غير المسبوق في تاريخ البشريّة قد فاق وعي الإنسان البسيط. وهو ما يحول دونه والتّمييز بين سلبيّات وإيجابيّات هذه الموجة المتدفّقة من المعارف والقيم والمعايير المتداخلة، نتيجة للانفلات المعلوماتيّ الكبير.

هنا، تُطرح عديد الاستفسارات والتّساؤلات عن مدى استمراريّة بعض القيم الّتي اعتُبرت لأجيال خلت من الثّوابت المتوارَثَة، وأُسّس على وتيرتها وإيقاعها النّسيج المجتمعيّ وطريقة التّفاعل بين مختلف مكوّنات المجتمع. فأيّ مشروع مجتمعيّ يمكن أن ينبثق عن ما تعيشه المجتمعات البشريّة من تحوّلات هائلة؟ ما هي الصّورة الّتي يمكن أن تتشكّل حول عديد المسائل والمفاهيم، كالفضاء والزّمان والمكان والآخر... ثمّ الهُويّة والكيان؟ وكيف هي بنية المجتمعات تحت وطأة[3] "تسونامي" التّحوّلات الّتي تشهدها المجتمعات اليوم؟

عديدة، إذن، هي التّساؤلات الّتي تثير حيرة المفكّرين، وتستفزّ رغبة الباحثين للتّعمّق والكشف عن تداعيات هذه القفزة النّوعيّة في حياة البشر، والتّفكير ملّيّا حول مستقبل المجتمعات البشريّة مع هذا التّدفّق الهائل للمستجدّات على جميع الأصعدة. للإجابة عن جلّ هذه التّساؤلات، أو بعضها، نحتاج، في بادئ الأمر، الوقوف عند بعض المفاهيم الإجرائيّة الّتي من شأنها أن توضّح بعض المسائل المتعلّقة بالاستقطاب والانبهار والثّابت والمتحوّل...

1. المجتمع وعملية تنظيم المجتمع:

نعود في تناولنا لهذا العنصر إلى مدرسة كان لها الأسبقيّة في تحديد معالم المجتمع البشريّ. فقد سعى العلّامة عبد الرّحمان بن خلدون[4]، باعتباره من أوائل الباحثين الّذين عملوا على بلورة مفهوم المجتمع، إلى استنباط الطّابع الحقيقيّ للمجتمعات البشريّة الّتي تشكّلت على أسس محدّدة تواصلت في الزّمن رغم التّحوّلات السّريعة الّتي مرّت وتمرّ بها جلّ المجتمعات البشريّة. كما كانت الغاية من الرّجوع إلى هذه النّظريّات، الوقوف عند الثّوابت من المتغيّرات في إطار الحراك الاجتماعيّ الّذي تعيشه المجتمعات، وصولا إلى ما يُسمّى "المجتمع الافتراضيّ"[5].

يعتبر اصطلاح "**المجتمع**" من أكثر المصطلحات شيوعا واستخداما في الخطاب العامّ، وفي الخطاب المتخصّص في العلوم الاجتماعيّة. ولكنّ الكثيرون يستخدمونه ليشيروا به إلى معنى عامّ يشوبه الغموض ودون تحديد، ممّا يؤدّي إلى صعوبات في الفهم والتّواصل، يعدّ هذا المفهوم الحيويّ انطلاقا من المصطلحات والتّعريفات المتّفق عليها في محيط العلوم الاجتماعيّة. فما هو المجتمع؟ ما هي مكوّناته؟ ما هي طبيعة عمليّة التّنظيم الاجتماعيّ الّتي تظهر من خلالها المجتمعات البشريّة؟ ما هي العمليّات الاجتماعيّة الأساسيّة الّتي يقوم المجتمع من خلالها بأداء وظائفه؟ وكيف يحافظ المجتمع على بقائه واستمراره رغم عواصف التّغيير الّتي تحيط به من كلّ جانب؟

أ- الحاجات الإنسانيّة والمجتمع الإنسانيّ:

يذكر ابن خلدون في المقدّمة "...ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدنيّ بالطّبع، أي لا بدّ له من الاجتماع الّذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران. وبيانه أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفّية له بمادّة حياته منه، ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطّحن والعجن والطّبخ. وكلّ واحد من هذه الأعمال الثّلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلا بصناعات متعدّدة من حدّاد ونجّار وفاخوريّ..."[6].

لن نغوص كثيرا للبحث عن تعريفٍ كافٍ وشافٍ للمجتمع البشريّ مثلما قدّمه العلّامة ابن خلدون. هنا، تتوضح معالم المجتمع الإنسانيّ. فالمجتمع هو كلّ ما يجتمع لتلبية حاجات الإنسان في مختلف إشكالها. ويواصل ابن خلدون تعريفه للمجتمع البشريّ، فيقول "...وهب أنّه يأكله حبّا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله أيضا حبّا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزّراعة والحصاد والدّراس الّذي يخرج الحبّ من غلاف السّنبل. ويحتاج كلّ واحد من هذه، آلات متعدّدة، وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن تفي بذلك كلّه أو ببعضه قدرة الواحد، فلا بدّ من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتّعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف..." [7].

لا يختلف أحد على أن المكوّن الأساسيّ فيما يسمّى بالمجتمع هو النّاس أو البشر، الّذين يجتمعون معا في نوع من التّقارب المكانيّ في منطقة جغرافيّة كبيرة أو صغيرة. وإذا تساءلنا عن السّبب الّذي يدفع النّاس إلى التّجمع معا على هذا الوجه، فإنّنا نقول إنّ النّاس قد تجمّعوا معا لإشباع حاجاتهم الإنسانية. فأيّ إنسان لا يستطيع أن يعيش منفردا، وذلك لسبب معروف، هو أنّه سيعجز عن إشباع حاجاته بنفسه.

تتميّز حاجات الإنسان "بالتّعدّد والتّنوّع"...، حيث أنّ له ألوانا متعدّدة من الحاجات الجسميّة البيولوجيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة. كما تتميّز حاجات الإنسان "بالتّجدّد"، بمعنى أنّ إشباع أيّ من تلك الحاجات مرّة واحدة لا يكفي لإشباعها إلى الأبد. فسرعان ما يتجدّد الشّعور بالحاجة بعد فترة من الزّمن طالت أو قصرت... والإنسان قد يشبع حاجته للطّعام الآن، ولكنّه سرعان ما يشعر بالحاجة إلى الطّعام تتجدّد بعد بضعة ساعات، وهكذا. ومن هنا، فإنّ حاجته إلى الآخرين متجدّدة. وهناك سمة أخرى لها أهمّيّة خاصّة، وهي أنّ الحاجات الإنسانيّة "نسبيّة"...، بمعنى أنّه ليست هناك أيّ وسيلة لتحقيق الإشباع المطلق للحاجات الإنسانيّة، أي أنّ حاجات الإنسان لا تقف عند حدّ حتّى يتوقّاه الموت.

في ضوء تلك السّمات الّتي تتميّز بها الحاجات الإنسانيّة، لا يمكن إذن أن نتصوّر وجود الإنسان إلّا في وسط غيره من بني الإنسان، وذلك لغاية أساسيّة تتمثّل في إشباع حاجاته الإنسانيّة. ولكنّ تجمّع النّاس معاً لإشباع حاجاتهم على هذا الوجه يكون مستحيلاً بغير "تنظيم". ومن هنا، تأتي أهمّيّة عمليّة التّنظيم الاجتماعيّ الّتي تحدث دائما كعمليّة "تلقائيّة" في كلّ تجمّع إنسانيّ.

ب-عملية التّنظيم الاجتماعيّ: الجانب التّفاعليّ:

بمجرّد تجمّع النّاس معا لإشباع حاجاتهم الإنسانيّة، "تطرأ على سلوكهم تعديلات في ضوء إدراكهم لوجود الآخرين"[8]، ولا يخرج عن كونه ذلك التّعديل الّذي يطرأ على سلوك الفرد نتيجة لوجوده في وسط إنسانيّ. ويقول ابن خلدون في هذا الصّدد "...اعلم أنّه لمّا كانت حقيقة التّاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنسانيّ الّذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التّوحّش والتّأنّس والعصبيّات وأصناف التّغلّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدّول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..." [9]. من هنا، تضبط عمليّة التّفاعل الاجتماعيّ الّتي تنبني أساسا على حاجة الإنسان المتواصلة لآخر، إذ يجد فيه ملاذا لتلبية حاجاته الّتي لا تتحقّق إلّا بوجود هذا الآخر. إذا كنّا قد قلنا إنّ حاجات الإنسان (الّتي يتجمّع النّاس معا لإشباعها وبسببها يدخلون في عدد هائل من التّفاعلات الاجتماعيّة) تتّسم بالاطّراد والتّجدّد، فإنّ التّغيّر جزء لا يتجزّأ من طبيعة الكون الّذي نعيش فيه. ولهذا، يقولون إنّ التّغيّر هو الحقيقة الوحيدة الثّابتة الّتي "لا تتغيّر"... والتّغيّر يطرأ على كلّ أشكال الوجود، الجامد والحيّ، الطّبيعيّ الفيزيقيّ والإنسانيّ. والمتأمّل لتاريخ البشريّة يدرك مدى التّغيّر الكبير الّذي طرأ على الإنسان، وعلى النّظم الاجتماعيّة الّتي ابتكرها لتيسير حياته. فهل نستطيع القول، إذن، إنّ ما تشهده الإنسانيّة من تحوّل هامّ هو في الحقيقة تجدّد في حاجات الإنسان الّتي لا تنتهي؟؟؟ من هنا، تنطلق فكرة أنّ "الحاجة أمّ الاختراع". فحاجة الإنسان للاتّصال والتّواصل كانت ولا تظلّ من الحاجات الأساسيّة لضمان استمرارية تحقيق كيانه. فكيف يمكن تحديد معالم هذه القيمة الإنسانيّة "التّواصل"؟ وما هو دور الثّورة التّكنولوجيّة في تحقيق وتطوير هذه الحاجيات؟

2. الاتّصال والتّواصل في حياة البشر

ممّا لا شكّ فيه أنّ عصرنا، اليوم، هو عصر الاتّصال بامتياز. فشبكات الاتّصال على اختلاف مكوّناتها طفت بشكل جليّ وبارز على الحياة اليوميّة للإنسان في مختلف بقاع العالم. وعليه، لابدّ في البداية من القيام بمحاولة بسيطة لمقاربة المفاهيم الأساسيّة في معالجة مسألة الاتّصال والتّواصل في حياة البشريّة كحاجة أساسيّة للاستمرار. من هنا، نتساءل ما المقصود بالاتّصال؟ ما هي أهمّ وسائطه؟ وكيف يبرز دور الاتّصال داخل المجتمع؟

أ- قيـــــمة الاتّصال:

إنّ أولى البديهيّات الّتي تعترينا وتقابلنا عندما نودّ الحديث عن مفهوم الاتّصال هي أنّ هذا المفهوم أو هذه العبارة إن صحّ التّعبير هي عبارة جديدة النّشأة، حديثة العهد، وقريبة الظّهور، أو إنّها عبارة معاصرة ظهرت حديثا. لكنّ الواقع أنّ كلمة "الاتّصال" قديمة قدم التّاريخ. ومع ما أضحى يغطّيها في القرن الماضي من فضاءات شاسعة جعلت منها وحدة تحليليّة ومفاهيميّة تدرّس وتعتمد في أبحاث كبرى جدّا، أصبحت علما قائما بذاته يدرّس في الجامعات والمعاهد والمراكز الكبرى في العالم. ويقول، في هذا الصّدد، الأستاذ يحيى اليحياوي: "والواقع أنه على الرّغم من أن كلمة الاتّصال قديمة قدم الإنسان وأكثر، إلّا أنّ الفضاءات الواسعة الّتي أضحت تغطّيها، أواسط القرن الماضي جعلت منها ليس فقط معطى اجتماعيّا وسوسيولوجيّا وأنثروبولوجيّا قائما، بل وحوّلته إلى وحدة تحليليّة ومفاهيميّة معتمدة في الأبحاث والدّراسات، بل ومؤطّرة لعلوم جديدة تدرّس بالمعاهد والمراكز والجامعات وغيرها"[10].

ومع ما ميّز هذا المفهوم، في القرن العشرين، من اتّساع في المجال والفضاء، إلّا أنّه يمكننا القول إنّ الاتّصال ملكة اجتماعيّة ميّزت الإنسان في حياته منذ أن خلق الله تعالى هذا الكون. وعليه لا حاجة إذن إلى الزيادة في الفوضى في هذه المسألة "أصل الكلمة"، بقدر ما نحن في حاجة إلى الوقوف عند السّرّ الّذي أدّى إلى اتّساع مجال الاتّصال، وقدّر له إلى ما يمكن أن نشبّهه "بالقيمة الاجتماعية". وسنستحضر، هنا، ما قاله "فيليب بروتون" في هذا الباب، إذ حاول من خلال هذا الكلام أن يوضّح فكرة رئيسيّة مفادها أنّ الاتصال، إلى حدود القرن الماضي، لم يكن له وجود يذكر إلّا من خلال تواجده في نقطة التّقاطع الّتي يلتقي فيها عالم اللّغة وعالم التّقنية. وحاول "فيليب بروتون" أيضا طرح تعريف للاتّصال بوصفه تفعيل تقنيّ للّغة، أي إعادة اللّغة بطريقة تقنيّة، ويعطي مثالا بالرّسالة. كما يؤكّد أنّ الاتّصال ممارسة قديمة قدم الإنسان، ظلّت ملازمة له على مرّ العصور، وشبيهة بما يلازم الإنسان من نظم عيش وعادات في الحياة لا يمكن للإنسان التّخلّي عنها مهما حدث.

إنّ ما جاءت به التّقنيّات الحديثة المجسّدة في الاختراعات الكبرى هو تدشين لمرحلة جديدة أصبحت فيها كلمة "اتّصال" عاملا مؤثّرا وبقوّة في الحياة والاقتصاد والمجتمع والثّقافة وكلّ أنماط الحياة العامّة. ويمكن القول إنّ هناك نقاط التقاء كبرى يشترك فيها التّطوّر الاجتماعيّ وتطوّر الإبداع والتّطبيق التّقنيّ في ميدان الاتّصال. يشير "يحي اليحياوي"، في كتابه "تاريخ سوسيولوجيا الاتّصال تحديدا"، أنّه من الثّابت في تاريخ الاتصال أنّ هناك جدليّة قائمة بين الإبداع والتّطبيق التّكنولوجيّ وبين تأثير ذلك في حركيّة المجتمع[11].

3. المجتمع والاتصال:

إنّ مجموع ما نسمّيه، اليوم، بممارسات الاتّصال إنّما كانت موجودة منذ زمن بعيد. فالإنسان، بالمفهوم الواسع للكلمة، كان دائما ودوما يتواصل. هذه الممارسات، يمكن اعتبارها مزامنة للإنسانيّة، تماما كاللّغة أو الأداة اللّتان تعتبران الميّزات الأساسيّة للإنسان ما قبل التّاريخ... إنّه بالإمكان تصّور أنّ ممارسات الاتّصال كانت بامتياز نقطة تلاق بين اللّغة والأداة. أليس الاتّصال، هو في الآن معا، تفعيل تقنيّ للّغة؟.

يعتبر الاتّصال قيمة مركزيّة في المجتمع. فلا وجود لمجتمع دون اتّصال، حيث يقول "فيينير" إنّ الاتصال أضحى قيمة مركزيّة في المجتمع بل "ظاهرة مركزيّة". وعليه، أمكننا القول إنّه لا وجود لمجتمع لا تواصل فيه، فكلّ المجتمعات البشريّة على اختلافها كانت تتواصل ولازالت كذلك. وإن كان هذا الاتّصال يأخذ أشكالا مختلفة من مجتمع إلى أخر، ويشكّل ميزة المجتمع الأساسيّة وخاصّيّته، فكيف يمكن تحديد مفهوم الاتّصال كقيمة اجتماعيّة؟

يبقى الإشكال المطروح، وبشدّة، عن كيفية تفاعل الإنسان المعاصر مع هذه التّغيّرات الهائلة الّتي تتدفّق يوميّا عبر شبكات الاتّصال؟ ما مدى تمكّنه من التّمييز بين الخطأ والصّواب في ظلّ هذا الكمّ الهائل من المعلوماتيّة الّتي تعيشها البشريّة؟ هذه المسألة، أشار إليها العلّامة "ابن خلدون" في أثره الشّهير "المقدّمة"، حينما تحدّث عن الخبر وكيفيّة نقل الخبر. فيقول: "...ولمّا كان الكذب متطرّقا للخبر بطبعته وله أسباب تقتضيه. فمنها التّشيعات للآراء والمذاهب فإنّ النّفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التّمحيص والنّظر حتّى تتبيّن صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيّع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأوّل وهلة(...). ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضا الثّقة بالنّاقلين. وتمحيص ذلك يرجع إلى التّعديل والتّجريح(...)"[12].

هنا، تتأكّد قيمة الاتّصال في نسج العلاقات الاجتماعيّة، المتداخلة منها والمنسجمة، وفقا لما توفّره المعلومة من إشاعة أو خبر كاذب ينتعشان خاصّة وقت الأزمات، أو كذلك حالة الانبهار ببعض الأنظمة أو الأشخاص أو المنظّرين إلى حدّ عدم القدرة على التّشكيك أو إعادة النّظر في الخبر المنقول...

إنّ البحث عن هذه التّحوّلات التّقنيّة المثيرة، ليس لكونها أشكالا حديثة يستلذّ بها البشر وتزداد رفاهيّتهم من خلالها، وإنّما لما ستفرزه من تحوّلات نفسيّة وثقافيّة واجتماعيّة وسلوكيّة على البشر، بحيث تنطلق من الأشكال التّقنيّة الجديدة أنماطا بشريّة في السّلوك والفكر والمجتمع. لذلك، فإنّ هذه الإفرازات تلقي، بالضّرورة، بظلالها على مجتمعاتنا، لتفرض ثقافتها وقيمها وأخلاقيّاتها الجديدة علينا. وهذا، سيشكّل لنا تحدّيا كما هو الآن. ومن هنا، يُفترض دراسة ظاهرة المعلوماتيّة ومعرفة ملامحها وأشكالها وتموّجاتها، لكي نصل إلى تحليل أبعادها وآثارها على المستقبل.

4. المعلوماتيّة انتقال لتاريخ جديد

إنّ التّحوّلات التّاريخيّة الكبيرة كان لها دور انعطافيّ في التّطوّر البشريّ والتّقدّم الحضاريّ. ولكنّ تحوّلات القرن العشرين هي شيء آخر في منعطفاته، إذ استخلص هذا القرن كلّ تجارب التّاريخ، واستجمع خبراته، وبدأ حركة تصاعديّة بلغت ذروتها في نهاياته وبدء إطلالته على القرن الحادي والعشرين.

إنّ التّقدّم التّقنيّ والمعلوماتيّ في الاتّصال والارتباط كانت معجزة هذا العصر، الّذي طرحها مبتكروها كمرحلة انتقال حاسمة في حياة البشريّة، حيث استطاعت هذه التّقنية أن ترفع الحواجز وتقرّب المسافات إلى حدّ جعل العالم قرية صغيرة تمتدّ بشبكة معقّدة من الاتّصالات.

لقد ولّدت هذه التّقنية، وتولّد، مفاهيم جديدة، باعتبار أنّها قاربت بين البشر والأمم إلى حدّ التّفاعل الشّديد والسّريع، حيث خلقت حالة تداخل شديدة بين الأفكار والثّقافات، ينتج عنها أمّا الصّراع والاصطدام أو الذّوبان والانصهار. ففي عصرنا التّاريخيّ الحالي، ليس هناك مجال لنصب أسوار العزلة الحديديّة لحماية مجتمعاتنا، بل أصبح الاندماج الحضاريّ والتّداخل الإنسانيّ إلى حدّ لا يمكن تصوّره. لذلك، فإنّ أهمّ عمليّات العولمة وسمتها المميّزة هي المعلوماتيّة أو التّقانة العليا بجوانبها العسكريّة والمدنيّة. والمقصود بالمعلوماتيّة، ليس فقط نقل المعلومات وتيسّرها لأوسع عدد من الأفراد والمؤسّسات، وإنّما الفرز المتواصل بين من يولّد المعلومات (الابتكار) ويملك القدرة على استغلالها (المهارات)، وبين من هو مستهلك لها بمهارات محدودة. ونستطيع أن نتكلّم، من هذا المنطلق، عن السّلطة المعلوماتيّة، فما المقصود بذلك؟

إنّ أساس ظهور المعلوماتيّة، وتحوّلها إلى قوّة العصر، يرتكز أساسا على تطوّر تقنيّات الاتّصال وسرعتها، بحيث أصبحت لها السّلطة في صناعة الأحداث وبناء السّياسات وإسقاط الأنظمة وتوتير الاقتصاد وانهياره والتهام الثّقافات وتعليب العقول. فللمعلوماتيّة، عبر أدواتها الاتّصاليّة وأخطبوطها الإعلاميّ، القدرة على صناعة الواقع الوهميّ حسب توجّهات النّخبة المسيطرة اقتصاديّا وفكريّا للاستئثار والتّحكم والسّلطة. فالقدرة على رسم حدود الواقع هي القدرة على السّيطرة. وإنّ عمليّة نقل المعلومات هي السّلطة. ويمثّل استئثار فئات معيّنة بحقّ الوصول إلى المعلومات، أو التّعامل معها، نوعا من السّلطة، يمكن اعتباره خطيرا وعنيدا. فالسّلطة المعلوماتيّة هي القدرة على استثمار سرعة الاتّصالات لإيصال معلومات مجهّزة مسبقا لأهداف معّينة. وهنا، يكمن جوهر ظاهرة المعلوماتيّة باستغلال الفراغ الّذي يخلقه متلقّي الرّسائل بالاتّصال الّسريع عندما يفقد الوقت اللّازم لاستيعاب الرّسالة وهضمها[13].

أصبحت المعلوماتيّة في نهاية هذا القرن القوّة القصوى والأولى، الّتي تحدّد الاستراتيجيّات، وتفرز التّوازنات السّياسيّة والعسكريّة. فلم تعد القوّة السّياسيّة أو العسكريّة في إقامة تحالفات وتكتّلات سياسيّة وتجميع حشود عسكريّة، بل أصبحت هذه القوّة، في منطق العالم الجديد، هي المعرفة الّتي بتزايدها يُرفع مستوى القوّة والتّفوق على الآخرين.

يمكن القول إنّ المعرفة الإنسـانية تشكّل العنصر الأساسيّ في صنع الحركة التّقدّميّة للأمم وبناء التّاريخ الإيجابيّ، لأنّ الإنسان بتميّزه التّكوينيّ يعتمد أساسا على التّشكّل المعرفيّ لبناء شخصيّته واكتساب ثقافته ونموّه العلميّ لإشباع حاجاته المادّيّة والمعنويّة.

إنّ الصّراع التّاريخيّ بين الأمم كان صراعا تميّزت فيه المعرفة كسلاح حاسم ينتصر فيه من يمتلكه مهما كانت القوى المادّيّة والعسكريّة الّتي يمتلكها الطّرف الآخر، لأنّ المجهود الحقيقيّ هو المجهود الّذي ينبعث من عقل الإنسان وليس جسده، والقوّة الواقعيّة في ذلك قوّة المعرفة والعلم. لذلك، كانت قوة انتشار الإسلام وانبعاثه في العالم تكمن في تلك المعلومات الّتي فتحت للبشريّة آفاقا معرفيّة جديدة قطعت خيوط ظلام الجاهليّة. من هنا، بدأ العالم يأخذ منحا تطوّريّا جديدا، أساسه العلم والمعرفة، حتّى القرن الحادي والعشرين، الّذي يشهد ثورة معرفيّة كبيرة، أساسها وعمادها ووقودها، المعلومات، ولا غير المعلومات. لقد أصبحت المعلومات السّلاح الفاعل للمجتمعات الحديثة. فمن امتلكه، امتلك قوام القدرة، وسيطر على العالم، باعتبار أنّ هذا القرن الجديد هو خلاصة مركّزة للتّطوّر والتّراكم العلميّ والمعلوماتيّ للتّاريخ البشريّ.

إنّ التّحوّل العالميّ المثير نحو السّيطرة المطلقة لسلطة المعلومات، وتحوّلها لأهمّ الأسلحة اقتصاديّا وسياسيّا وعسكريّا وثقافيّا، يدعونا لدراسة هذا المنحى الكبير في التّاريخ البشريّ، وتأثيره في المجتمع البشريّ قاطبة، وتحوّله لصياغة جديدة قد تحمل تموّجات خطيرة على بنية المجتمعات، وخاصّة منها الاستهلاكيّة في هذا المجال[14].

أ- جغرافيّة رأس المال الاجتماعيّ الافتراضيّ

ساهمت الإنترنت في تشكيلات جديدة وشبكات اجتماعيّة ناشئة. وتجاوزت هذه الشّبكات والتّفاعلات الإطار الفيزيقيّ، لتشكّل مجتمعا افتراضيّا، تتخطّى تفاعلاته الحدود الإقليميّة، وتتكوّن في إطاره تفاعلات لا مكانية يُطلِق عليها "**بلانشرد**" "شبكات اجتماعيّة كثيفة"[15]. ويمكن الإشارة، في هذا السّياق، إلى أنّ احتماليّة تَشكّل رأس المال الاجتماعيّ في المجتمع الافتراضيّ قد أضحى أمرا يسيرا.

في ظلّ هذا التّسارع العالميّ للتّحوّل نحو مجتمع المعرفة، وفي ظلّ التّغيّر العالميّ لمفهوم رأس المال والخصخصة وعناصر الإنتاج وطبيعة الاقتصاد، وسعي دول العالم قاطبة للانتقال إلى مجتمع المعرفة، وسعيها إلى تحقيق التّطبيق التّكنولوجيّ في جميع المجالات الحياتيّة، ومواكبة هذه الطّفرة التّكنولوجيّة الهائلة الّتي حدثت في الرّبع الأخير من القرن العشرين، واستمرّت نتائجها وتزايدت مع القرن الحادي والعشرين... في ظلّ كلّ هذه المتغيّرات، يُطرح بإلحاح على الباحثين الدّارسين والمهتمّين بمجال الحراك الّذي تعيشه بعض الشّعوب، السّؤال التّالي: أيّ شكل للهويّات الثّقافيّة مستقبلا، لاسيّما بعد أن تحوّلت المعارف إلى سلع قد تهدّد كيان المجتمع، وتؤثّر في القيم الّتي تشدّ بنيانه وفي خصوصيّاته الثّقافيّة؟

ب- تداعيات الافتراضيّ على النّسيج المجتمعيّ

سنحاول، في هذا الجزء الثّاني من المقالة العلميّة، التّطرّق إلى أهمّ صفات المجتمع المعلوماتيّ أو مجتمع المعرفة من خلال الحراك الهائل الّذي أقحمته موجة المعلوماتيّة على طبيعة المجتمعات. ففي ما يتّسم هذا الحراك؟ وما هي تداعياته على النّسيج المجتمعيّ؟

إنّ الإمكانات الاتّصاليّة الجديدة ساهمت في تقليص المسافات بين القوميّات المختلفة. ففي هذا الصّدد، سهّلت الإنترنت العلاقات بين البشر، الّذين يتشاركون نفس الاهتمامات ليتبادلوا بينهم

الخبرات والمعارف. ولقد اقترب اليوم الّذي لن يبقي فيه شيء يصعب على الإنسان أن يشارك فيه غيره وذلك بفضل تكنولوجيا المعلومات. ومن الطّبيعي أن تنمو الرّغبة في التّواصل، والّتي امتدّت لتشمل علاقات على المستوى الكونيّ تشكّلت من خلالها هذه التّقاطعات في جماعات افتراضيّة.

إنّ المحدّدات الاجتماعيّة الّتي تحكم طبيعة وأشكال العلاقات بين الأفراد، بات من الممكن تجاوزها في المجتمعات الرّقميّة، المتحرّرة من القواعد والضّوابط الّتي تتحكّم في العلاقات الاجتماعيّة، وتحدّد مسارها لدى المجتمعات التّقليديّة. فقد تمكّنت الثّورة المعلوماتيّة من خلق عالم افتراضيّ مواز للواقع، أتاح إمكانيّة تجاوز كافّة القيود والمحدّدات، بل وتمكّن هذا العالم الافتراضيّ من تعرية الواقع تماما.

إنّ المتأمّل لواقع التّفاعلات الافتراضيّ يدرك أنّها لا ترتبط ببنية أو هويّة محدّدة، لأنّها تتمّ من خلال وسيط إلكترونيّ، وهو الانترنت[16]. ويمكن، في هذا الشّأن، الخروج بمجموعة من السّمات، تميّز هذا النّمط من التّفاعلات، وكان لها الأثر الكبير في السّياق المجتمعيّ. وتتمثّل هذه السّمات في التّشاركيّة والانقطاع وتجاوز البعدين الزّماني والمكاني والتّفكّك والتّمرّد والفرديّة... وسنحاول، في السّياق، تناول هذه السّمات بشكل يوضّحها جميعا، دون التّعمّق فيها.

- **أوّلا: التّشاركيّة أو المشاركة (le partage)**: التّشاركيّة ليست المشاركة بمعناها التّقليديّ، الّتي كانت لأمد طويل تُحدّد داخل أطر اجتماعيّة معيّنة. وكانت الأسرة هي النّواة الأساسيّة الّتي ترسم هذه الأطر، وهي الفضاء الّذي يلتقي فيه الأفراد من أجل تلقّي تنشئة اجتماعيّة بمختلف مستوياتها؛ التّقاسم، التّشارك، التّبادل... لكن في ظلّ الثّقافة الافتراضيّة أصبح التّشارك خارج حدود الأطر الاجتماعيّة التّقليديّة، بل نتقاسمه مع ثقافات مختلفة المعاني، متعدّدة الأشكال. ويشير **"كاستال"** في هذا الصّدد "هي ثقافة افتراضيّة لأنّها تشكّلت أساسا وفق سياق اتّصاليّ افتراضيّ إلكترونيّ. فهي، إذن، واقعيّة وليست خياليّة، لأنّها في حقيقة الأمر أساس المادّيّ الّذي تنتظم عليه حياة البشر وتتكوّن أنساقنا وتمثّلاتنا، وعلى أساس ذلك نقوم بأنشطتنا وأعمالنا اليوميّة، كما أنّها تمكّننا من تكوين علاقات مع الآخرين، ونكتشف من خلالها عديد المعطيات، وتتكوّن آراءنا....."[17].

لقد تجاوزت وسائل الاتّصال الحديثة الأطر التّقليديّة في التّشارك المرتكزة على قواعد ثقافيّة متوارثة ومتوازنة مستمدّة من العيش المشترك، إلى التّشارك اللّامتناهي واللّامحدود بالمكان

أو الزّمان أو بمحدّدات ثقافيّة بعينها. ويتحقّق ذلك التّشارك اللّامتناهي واللّامحدود عبر منتديات توفّر من خلالها المعلومة المتنوّعة، وتخوّل فرصة تبادل المعلومات والمشاركة في فعاليّات على الصّعيد العالميّ من خلال سرعة انتشار المعلومة وتبادلها بتجاوز كلّ الحدود وخرق القوانين والموانع.

- **ثانيا: الانقطـــاع**: إنّ المتأمّل في حقيقة التّجمّعات الافتراضيّة، على تشكّلاتها المختلفة، يدرك أنّ هذه العلاقات والانخراط المستمر فيها يؤدّي إلى قطيعة على المستوى الاجتماعيّ. فالعلاقات الافتراضيّة تؤدّي إلى انقطاع العلاقة مع الأصدقاء: جار السّكن بل والأسرة أحيانا، وتستهلك وقت الفرد في علاقات تخرج به عن إطار العلاقات الفيزيقيّة لتسبح بالفرد في فضاء جديد هو الفضاء الرّمزيّ. إلا أنّ هذه النّظرة المتشائمة تحدث عندما تتزايد التّفاعلات الافتراضيّة لتتجاوز تفاعلات الفرد الواقعيّة.

- **ثالثا: تعدّد الفضاء وإلغاء الزّمن**: تتّسم التّفاعلات الاجتماعيّة على المستوى الافتراضيّ بتعدّديّة المراكز وتبادلها. فهذه العلاقات لا مركز لها. كلّها علاقات تخرج عن سياقات السّيطرة. فمن داخل المنتديات أو غرف المحادثات، لا توجد سلطة مركزيّة توجّه الحديث. كلّ فرد يستطيع أن يكون مركز الجماعة في أحيان كثيرة. وكلّ فرد يستطيع أن يقود الحوار مرّة أو مرّات. فهذه التّفاعلات، لا يحتكرها شخص يهيمن أو من يقوم بفرض سيطرة على الحوار. ولكنّ الجماعات الافتراضيّة كلّها تفاعلات لا مركزيّة. فتبادل الأدوار وارد في هذه التّجمّعات، إذ تسمح هذه التّفاعلات بتعدّد المراكز في الوقت ذاته. من هنا، يمكن أن يكون للجماعة الافتراضيّة أكثر من مركز في موضوع الاهتمام الواحد. وهذا المركز، ليس حكرا على فرد مهيمن، ولكن يخضع للتّبادل حسب رغبة الدّاخل في الحوار في معظم الأحوال.

- **رابعا: الإخفاء (L'anonymat)**: إنّ العلاقات الاجتماعيّة الافتراضيّة، في معظمها، تجمّعات خفيّة مجهولة الهويّة، إلّا في القليل النّادر منها. فالفرد الّذي ينخرط ضمن هذه التّفاعلات له الحقّ أن يخفي نفسه تحت مسمّيات مختلفة، أو ينفصل عن هويّته. وأحيانا يدخل التّفاعلات باسم أحد المشاهير، أو بأسماء فكاهية، أو إحدى الطّيور. وأحيانا يدخل الذّكور بأسماء الإناث، والعكس بالعكس... فهويّة الفرد، أو شخصيته، تختفي في ظلّ هذه

التّفاعلات، بل وتتباين في قوالب عديدة. فلا يستطيع المنخرط ضمن هذه التّفاعلات أن يعرف من يتحدث إلى من. العالم الافتراضيّ يساعد على ابتداع شخصيّات مجهولة الهويّة، بعيدة كلّ البعد عن الواقع المعيش. قد تكون الغاية من كلّ ذلك توسيع دائرة التّعارف، وتكثيف عدد المحيطين بنا، دون الاهتمام بعمليّة التّفاعل الحقيقيّة بين الأفراد والمجموعات.

- **خامسا: التّفكّك**: أشار "جراي كروج" "Gray Krug"، في فصله المعنون بالتّكنولوجيا كثقافة (Technology as Culture) [18]، إلى أنّ ابتكار الواقع الافتراضيّ وعوالمه الإلكترونيّة أدّى إلى تفكيك العلاقات الفيزيائيّة بين الأفراد. ويقصد بذلك أنّ تفاعلات الواقع الافتراضيّ الّتي تتمّ في إطار الإنترنت أثّرت بدورها على تفكيك العلاقة بين التّفاعلات الّتي تقوم على أساس الوجه بالوجه. فتشكُّل الفضاء الرّمزيّ أدّى إلى تفكّك في العلاقات الفيزيقيّة بين الأفراد، وتشكّل نوع جديد من أنواع العلاقات الاجتماعيّة على المستوى الافتراضيّ. وتشير الدّلائل الواقعيّة أنّ هناك مزيدا من الاتّجاه نحو التّفاعلات الافتراضية وخاصّة في ظلّ التّحدّيات الطّارئة على الواقع المعيش. لقد طرح "**ألبرت بورجمان**" **Albert Borgma** فكرة في هذا الصّدد، مؤدّاها أنّ حاسبتنا تبعدنا عن عالمنا، حيث تلعب الإنترنت دورا في التّأثير في الأشخاص. لقد أتاحت فرصة تكوين علاقات اجتماعيّة سهلة عبر فضائها. وساهمت هذه العلاقات في تفكّك ما هو تقليديّ من العلاقات الاجتماعيّة، وتشكّل ما هو افتراضيّ على المستوى العالميّ. فهذه الجماعات لا ترتبط بهويّة بذاتها أو قوميّة معيّنة. لكنّها تجمع بين أفراد ينتمون إلى هويّات مختلفة وقوميّات متعدّدة. وكلّ ما يجمعهم هو فقط اهتمامات مشتركة.

- **سادسا: التّمـرّد**: لقد فتح الفضاء السّيبيريّ مجالا جديدا للتّمرّد والحركات الثّوريّة والتّحرّريّة، إذ أنّ من ضمن تشكيلة التّفاعلات الافتراضيّة تفاعلات تمرّديّة. فالفرد يستطيع أن يقول ما يريد خارج الضّوابط التّقليديّة للمجتمعات، وخاصّة في المجتمعات السّلطويّة. لقد فتحت الإنترنت مجالا جديدا للتّفاعلات، تقوم على الحرّيّة، وتخرج عن سيطرة الدّولة. فالمجال مفتوح في الفضاء الرّمزيّ للاتّفاق على الثّورات أو التّظاهرات من دون قيود المكان. ويُدرك المتأمّل لحركات التّمرّد على المستويات القوميّة أو العالميّة أنّ الإنترنت وتجمّعاتها الافتراضيّة تشكّل آليّة رئيسيّة، تساهم في تقارب المسافات والاهتمامات، والاتّفاق على

مناهضة بعض القضايا أو المطالبة ببعض الحقوق. ويمكن، في هذا السّياق، التّذكير بما حصل في بعض الدّول العربيّة الّتي عاشت "ثورات"، لعبت خلالها وسائل الاتّصال الحديثة الدّور الأهمّ في تأجّج هذه الثّورات، وتوسّع رقعة انتشارها.

- **سابعا: الفرديّة (l'individualisme):** هناك نزوع في المجتمع الافتراضيّ، وتفاعلاته النّاشئة، إلى الفرديّة. ونقصد بفكرة الفرديّة، هنا، الانعزال عن السّياق الاجتماعيّ المحيط بالفرد. فالفرد المنخرط في التّفاعلات الافتراضيّة، حتّى لو كانت جماعيّة، إلّا أنّه يدخلها بوصفه فردا من أمام شاشة حاسوب خاصّة، تأخذه من عالمه الواقعيّ إلى عالم افتراضيّ. يؤدّي ذلك إلى ما يمكن تسميّته عند التّجاوز في هذه التّفاعلات إلى نوع من أنواع الاغتراب، وذلك في حال انفصاله عن واقعه الحقيقيّ. لقد أكّد **"كاستال"** على هذا البعد، مشيرا إلى مدى تغلغله في مجتمع المعلوماتية[19]، إذ يشير إلى ذلك كالآتي "...بعد أن عاشت الإنسانيّة هيمنة العلاقات الأوّليّة (العائليّة منها أو المجتمعيّة)، ومن بعدها الثّنائيّة والمتمثّلة في (الجمعيّات)، ها نحن نعيش نظاما علائقيّا جديدا أفرزته شبكات التّواصل المحيطة بالإنسان المعاصر من كلّ الاتجاهات... نحن نعيش ما يسمّى بشخصنة الاجتماعيّ...".

قائمة الهوامش:

[1] دراسات ابن خلدون في هذا الصدد أو الدراسات التي قام بها **كلود ليفي استرواس** حول المجتمعات البدائية والأمثلة كثيرة.

[2] د. جوهر الجمّوسي، **المجتمع الافتراضي**، مؤسّسة "نوفا برنت" للطّباعة والنّشر، الطبعة الأولى، تونس، أوت 2007، ص.17.

[3] نبيل علي، **صورة الثقافات العربية والإسلامية على الإنترنت وخطة تنفيذية مقترحة لإقامة شبكة مواقع خدمات للإعلام الثقافي العربي**، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، إدارة البرامج العامة والاتصال، تونس، 1999، ص.1.

[4] 4عبد الرحمان، بن خلدون (1956)، **المقدمة**، الجزء الأول، الباب الأول في العمران البشري في أنّ الاجتماع الإنساني ضروري؛ دار البيان، طبعة بيروت.

[5] الموسوعة العربيّة لعلم الاجتماع وكتاب برنارد جوليفالت حول **الواقع الافتراضي** وغيرها كثير.

[6] عبد الرحمان، بن خلدون (1956)، **المقدمة**، الجزء الأول، الباب الأول في العمران البشري في أنّ الاجتماع الإنساني ضروري؛ دار البيان، طبعة بيروت، ص 29.

[7] عبد الرحمان، بن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق.

[8] Levi Strauss, Claude (1967), **Les structures élémentaires de la parenté**, Paris, édition Mouton, p.p.124-127

[9] عبد الرحمان ابن خلدون ، **مرجع سابق**، ص. 24

[10] Philippe Breton, **Utopie de la communication**, La Découverte, 1992, P.46

[11] يحي اليحياوي، كونية الاتصال، **عولمة الثقافة**، منشورات عكاظ، الرباط، نوفمبر 2004، ص.22.

[12] عبد الرحمان ابن خلدون ، **مرجع سابق**، ص. 27-29

[13] Philippe Breton, **Utopie de la communication**, La Découverte, 1992, P.46

[14] عزّت حجازي، **رأس المال الاجتماعي كأداة تحليليه في العلوم الاجتماعية**، المجلة الاجتماعية القومية، المجلّد الثالث والأربعون، العدد الأول، يناير 2006.

[15] Manuel Castells. **La Galaxie Internet**, Paris, Fayard, 2001

[16] شاكر عبد الحميد، **عصر الصورة الإيجابيّات والسّلبيّات**، عالم المعرفة، العدد 211، يناير 2002، ص.82.

[17] Elle est virtuelle parce qu'elle est élaborée principalement selon des processus de communication virtuels, électroniques . elle est réelle (et non imaginaire), parce qu'elle est notre réalité fondamentale, la base matérielle à partir de laquelle nous vivons notre vie ,construisons nos systèmes de représentation, accomplissons notre travail, entrons en relation avec les autres, trouvons nos informations, élaborons nos opinions,…cette virtualité est notre réalité". Manuel Castells. **La Galaxie Internet**, P 250.

[18] Krug, Gary, **communication**, **Technology and culture chang**, SAGE publications, London-Thousand Oaks, New Delhi,2001 P: 2.

[19] Après l'hégémonie des relations primaires (les familles, les communautés), puis secondaires(les associations), nous voici dotés d'un nouveau système dominant qui parait construit sur les relations tertiaires…les réseaux centrés autour du moi. on assiste, en fait, à une véritable privatisation de la sociabilité, P: 161-162.